ليونارد بيرنشتاين

لم يكن ليونارد بيرنشتاين (1918 ـ 1990) قائد أوركسترا تقليدياً أو عادياً. فمسيرته من الموسيقى إلى التلفزيون إلى النشاط السياسي جعلته أحد الأسماء الكبيرة التي مرت في عالم الموسيقى

ليونارد بيرنشتاين أثناء عزف الأوركسترا سيمفونية غوستاف ماهلر التاسعة في بوسطن (بيتمان/Getty)

أسرار عن الموسيقى والعظمة المفرطة

علي موره لي

كم هو مريحٌ في الفن، وفي الموسيقى على وجه الخصوص، أن تتوفر لديك إجابة آنية عن سؤال كثيراً ما يُحيّرك حين يواجهك: من تُفضّل من بين المؤلفين أو العازفين؟ لذا أشعر بالسرور، في كل مرة أُسأل فيها عن قائد الأوركسترا المفضل لديّ خلال القرن العشرين. إذ إن إجابتي تأتي سريعة، قاطعة، ومن دون تردد: ليونارد بيرنشتاين (1918 ـ 1990). لا لعبقريته الموسيقية فقط؛ فقد كان عازف بيانو بارعاً، ومؤلفاً فذاً وقائد الأوركسترا الأقدر في عصره، بحسب شهادات جميع من عزفوا معه، على جعل العازفين على خشبة المسرح أو في استوديو التسجيل يقدمون للمستمعين أفضل ما عندهم. السبب لم يكن سحر شخصيته وسرعة بديهته وسعة معرفته، ورفعة ثقافته وشجاعته السياسية والاجتماعية اللامتناهية، بل لكونه أمثولة في البذل، وعدم الخوف من الإسراف في العطاء. سواء في الفن أو في الحياة.

في برنامجه التلفزيوني الجماهيري عن ماهية الموسيقى «السؤال الذي لا إجابة عنه»، يتحدث بيرنشتاين واصفاً في دقائق الحركة الرابعة والأخيرة، لعلها الموسيقى الأروع على الإطلاق، من سيمفونية غوستاف ماهلر التاسعة. فيقول: «هكذا نصل إلى الصفحة الأخيرة . من السيمفونية ـ بكل ما بها من عظمة لا تُصدّق. تلك الصفحة، في اعتقادي، لهي أقرب ما وصل إليه أي عمل فني في اختبار لحظة الموت وتسليم كل شيء. بطء تلك الحركة يبعث على الخوف. كل التوجيهات الأدائية التي دوّنها المؤلف على النوتة تحث على التباطؤ... في سعي لتجسيد اللحظة الأخيرة التي تسبق توقف الزمن. إنه لشعورٌ مخيف، شللٌ يُصيبنا جراء تحلّل خيوط الأصوات. بينما ما زلنا نتمسّك بها، نحوم ما بين الأمل والاستسلام. واحداً تلو آخر، تذوب الخيوط العنكبوتية الدقيقة التي تصلنا بالحياة وتتلاشى من بين أصابعنا. مع هذا، نتشبث بها وهي تذوي؛ خيطان، خيطٌ واحد، ثم فجأة، ولا واحد. ثم تأتي لحظة مرعبة لا يتناهى خلالها سوى الصمت. إلى حين أن تسمع خيطاً من جديد، منكسرا، خيطين، ثم واحد، فلا واحد؛ لقد بت نصفَ مغرمٍ بموت يسير. إذ إن الموت أكثر من يوم مضى، يبدو كما لو أمسى غنى. عند منتصف الليل، ومن دون ألم، تتوقف الحياة؛ بالموت نخسر كل شيء، لكن عند ماهلر، نبدو بالموت كما لو أننا كسبنا كل شيء».

> خاض صراعاً مع الإدارة الأميركية مع بداية الحرب الباردة

أكثر ما يُؤثر بالنفس، في هذا التأويل الموسيقي العميق والوصف الشعري البليغ، هي السطور الأخيرة التي اقتُبست في الواقع من قصيدة «أنشودة إلى عندليب» للشاعر البريطاني جون كيتس. وما زاد من وقعها هو الأداء الذي ترجم به بيرنشتاين تلك القراءة موسيقياً على خشبة المسرح. في تلك الأمسية التاريخية، المسجّلة والمصورة سنة 1972. حين قاد أوركسترا فيينا الفيلهارمونية لتعزف سيمفونية ماهلر التاسعة.

إذ تراه يعيش الأداء على خشبة المسرح، كما يحيى على مسرح الحياة؛ فالشمعة لكي تضيء، وجب عليها أن تحترق. ليس خلال الحفل فقط، وإنما في كل دقيقة من ساعات التمرين الشاقة الطويلة التي كان يخوضها مع أعضاء الفرقة قبل مقابلة الجمهور. في كل حركة من عصا القيادة وعبر كل إيماءة، كانت تصدر عنه شحنة هائلة من طاقة روحية، تدب في نفوس العازفين، قبل أن تُبث عبر أثير الصالة إلى قلوب المستمعين.

لم يكن بيرنشتاين يخشى البذل وتبعاته الجسدية أو النفسية. بل اعتنقه أسلوب عيش وطريقة فهم للوجود وماهيته والغاية منه، وفي المجالات كافة. كانت تلك عقود الخمسينيات والستينيات نهاية القرن الماضي. في غرب ينهض وينفض عنه رماد الحروب. سنين نمو اقتصادي وفوران اجتماعي وثوران سياسي، انعكست في سعي متواصل خلف اللذة بأشكالها، والحب بألوانه. تبنّى ليني، كما ناداه أصدقاؤه، تلك المفاهيم بشدة وذهب بها إلى أبعد الحدود. ظل يُدخّن التبغ بشراهة حتى عجزت رئتاه عن تنفس الهواء. كما كان يقضي الليالي ساهراً في تأليف الموسيقى، والنهارات في التمارين والمقابلات والمظاهرات، والأماسي يُحيي الحفلات، وفي ما تبقى يدور العالم على متن الطائرات.

انفتح على الفن الشعبي (pop) ورأى فيه إمكانية الاتصال بقواعد المجتمع العريضة. إلى جانب كونه من ركائز الهوية الثقافية الأميركية القائمة على العفوية والارتجال، مقابل مركزية أوروبا التاريخية ذات النزعة العقلانية والمحافظة. من هنا أجاد عزف وتأليف موسيقى الجاز. حتى أنه انتهى إلى توظيفها في أعماله الكلاسيكية.

كما اشتغل في مجال الصناعة الفنية الترفيهية، من كتابة موسيقى تصويرية مسرحية وسينمائية، وإنتاج دراما غنائية استعراضية (ميوزيكال)، منها «وست ساید ستوري» سنة 1975 التي استلهم كاتب قصتها ستيفن سوندهايم أحداثها من تراجيديا شكسبير العاطفية «روميو وجولييت».

وكما هي الحال دائماً، عندما تتعارض رؤية الفنان الكونية مع مؤسسة السلطة السياسية، قُدِّر لبيرنشتاين أن يخوض صراعاً مع الإدارة الأميركية خلال المرحلة المبكرة من الحرب الباردة، كاد أن يُكلفه مشواره المهني وأن يُدخله معسكرات الاعتقال لسنين عدة. تضامنه مع قضايا التحرر العالمي، وإسراعه إلى توقيع أي عريضة في سبيل مناهضة العنصرية أو وقف سباق التسلح النووي، ساقا اسمه إلى قوائم المشتبه بهم في تهمة الشيوعية. جاء ذلك في غمرة الرهاب الأمني وسياسة «الحذر اللاعقلاني» Irrational Vigilance التي تملّكت فروع الاستخبارات آنذاك، اشتباهاً بأي تغلغل سوفييتي داخل المجتمع الأميركي يتخفّى تحت عباءة اليسار العالمي.

قال الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت ذات مرة: «لا يمكن إدراك الوحدة بين الروح والجسد، إلا باستهلاك الحياة»، لعل ذلك ما أراده بيرنشتاين وصبا إليه. لقد عاش الموسيقى إلى حد لم تعد معه الموسيقى تشغل حياته وإنما غدت حياته تشغل الموسيقى. أحب الفن حدّ الإسراف، فبذل في سبيلها أغلى ما يملك، بذل حياته. وحين يبذل المرء حياته لأجل شيء، فإنه على طريقة ماهلر، يكسب كل شيء.

البدايات

ولد ليونارد بيرنشتاين في لورانس، ماساتشوستس عام 1918، ودرس البيانو منذ كان طفلاً. في جامعة هارفرد، درس مع عدد من المؤلفين الموسيقيين الذين سينالون شهرة واسعة لاحقاً مثل والتر بيستون، وإدوارد بورلينغيم هيل، وأ.تيلمان ميريت. وقبل تخرّجه عام 1939، قاد للمرة الأولى أوركسترا صغيرة وغير رسمية في عرض موسيقي من تأليف بعنوان «ذا بيردز».

عتاب
رحلة السمراء من الرياض وإليها

مريم الحبيب

قبل أسبوعين تقريباً مرت الذكرى الـ14 لرحيل المطربة السعودية عتاب (1947 ـ 2007)، صاحبة أحد أهم الأصوات الخليجية والسعودية التي عرفها العالم العربي. مطربة بمسيرة وقصة حياة مبهرة، بعدما اختارت باكراً الوقوف في وجه كل التقاليد والعادات في السعودية، مسمِعة صوتها للجميع.

ولدت طروف عبد الخير الطلال، وهو الاسم الحقيقي لعتاب، في الرياض عام 1947، كان والدها موظفاً بسيطاً في وزارة الزراعة، وتوفيت والدتها قبل أن تبلغ هي سنواتها الخمس واهتمت بها خالتها طيلة طفولتها. خلال تلك السنوات، بدأت عتاب الغناء بين رفيقات الدراسة، لتكتشف حبها للفن، وتبدأ باستكشاف طاقاتها الغنائية.

هكذا بدأت شهرتها تتجاوز الحدود الضيقة لتبدأ بإحياء المناسبات والأفراح عند الجيران وأهل المنطقة، وهو ما أتاح لها اكتساب خبرة جديدة عليها في عالم الغناء، وحفظ الأغاني الفلكلورية. وقد حققت في سنوات مراهقتها الأولى، شهرة كبيرة داخل مدينة الرياض. بعدها بسنوات، انتقلت عتاب المراهقة إلى مدينة جدة، في خطة كانت الأهم في حياتها الفنية. هناك استمع إليها أبرز صوت سعودي، الفنان طلاح مداح، فتبناها فنياً، وفتح لها باب التعاون مع ملحنين وشعراء كبار في تلك المرحلة مثل عمر كدرس. وبعدها بسنوات، عندما نضج صوتها، قدّم معها ألبوماً في سبعينيات القرن الماضي من ألحانه، كما شاركها الغناء في أغنية «زل الطرب». منذ منتصف السبعينيات بدأت عتاب ببناء جماهيرية كبيرة، بين النساء طبعاً، في مختلف المدن السعودية، خصوصاً الرياض وجدة والطائف، لتصبح الأقنوم الثالث بين المطربات السعوديات إلى جانب توحة وابتسام لطفي. وكانت عتاب أول فنانة تقتحم عالم التلفزيون السعودي وتظهر عليه وتقدم الحفلات، حيث تقف على المسرح وتنسى نفسها فتنسجم وتغني وترقص وتبدع. لكن بعد انتقادات طاولتها، اختارت وجهة جديدة أكثر حرية، هي الكويت التي انتقلت إليها وشكلت ثنائياً ناجحاً مع الموسيقي حيدر فكري، لتبدأ رحلة نجاحها العربية.

> تعتبر فترة وجودها في الكويت من أكثر الفترات ازدهاراً

رغم مسيرتها الحافلة، تعتبر فترة وجودها في الكويت من أكثر الفترات ازدهاراً، إذ أعلنت نفسها مطربة كبيرة تمتلك الكثير لتقدمه في مسيرتها. لكن أحلامها تخطت حدود الخليج، لتصل إلى مصر حيث وصلت إلى قمة نجاحها، من خلال تقديم عدد كبير من الحفلات، والتعاون مع ملحنين مصريين كبار، مثل محمد الموجي، كما ظهرت في عدد من البرامج التلفزيونية، وما زاد من شهرتها كان انفتاح المصريين على الخليج في تلك الفترة في ظل موجة هجرة مصرية إلى مختلف الدول الخليجية للعمل. ومن القاهرة قدّمت أغنيتها الأشهر «جاني الأسمر» التي حققت نجاحاً كبيراً وأصبحت الأغنية الأنجح والأهم في مسيرتها الطويلة، من كلمات ثريا جابر وألحان فوزي محسون. ورغم أن الأغنية لم تكتب لها بالأساس بل للفنان علي عبد الكريم، إلا أنها عرفت بخفتها وصوتها الجميل كيف تجعلها عملاً ناجحاً، حتى نُسيت النسخة الأصلية وبقيت نسخة عتاب.

النجاح لم يكن فنياً فقط في القاهرة بل بدأت مشروعها التجاري، مفتتحة ملهى ليلياً في العاصمة المصرية، حيث كانت تغني فيه، جاذبة جمهوراً كبيراً، ومحققة أرباحاً مالية ضخمة، إلى أن تعرضت للسرقة من زوجها الثاني المصري محب فاروق عبد الصبور، وهو ما أثر عليها مادياً ونفسياً.

بعد هذه الحياة الحافلة، أصيبت بمرض السرطان مطلع الألفية الجديدة، لتبتعد عن الأضواء، وتكتفي بحياة هادئة، حتى فارقت الحياة عام 2007 في القاهرة.

نالت شهرة عربية بعد وصولها إلى مصر (فيسبوك)

أخبار

توفي الموسيقار اليوناني الكبير **ميكيس ثيودوراكيس** (الصورة) عن 96 عاماً في أثينا، بحسب مصادر في المستشفى. وقد اشتهر هذا المقاوم السابق والمعارض لدكتاتورية الكولونيلات بتأليف موسيقى فيلم «زوربا اليوناني»

كشف أعضاء فرقة «**آبّا**» (الصورة) السويدية الشهيرة، عن ألبوم جديد سيصدرونه، هو الأول منذ نحو 40 عاماً لهؤلاء المغنين الذين تجاوزت أعمارهم اليوم السبعين، وعن جولة لهم من خلال صورهم التجسيمية.

أعلن **إلتون جون** (الصورة) عن صدور ألبوم جديد الشهر المقبل بعنوان «ذي لوكداون سيشنز» أعدّه خلال فترة الحجر بالتعاون مع كوكبة من النجوم. ويتضمّن الألبوم المزمع صدوره في 22 أكتوبر/تشرين الأول 16 أغنية.

قررت نقابة المهن الموسيقية في مصر، وقف تصاريح الغناء لمدة شهر، للمغنيين الشعبيين، **حسن شاكوش** (الصورة) ورضا البحراوي، ومنعهما من الغناء طوال مدة الوقف. وقالت النقابة، في بيان، إن قرارها جاء بسبب «ما بدر منهما من تنمر».

أعلنت «**آبل**» عن شراء منصة «**برايموفونيك**» المتخصّصة في الموسيقى الكلاسيكية، على أن تطلق العام المقبل تطبيقا مخصّصا لهذا النمط الموسيقي، في خطوة هي الأولى من نوعها للشركة.